تجاذب الهوية وشعرية المنفى في رواية «عمت صباحا أيتها الحرب» لـ: «مها حسن»

The Polarization of Identity and the Poetics of Exile in Maha Hassan's Novel "Good Morning, War"

La polarisation identitaire et la poétique de l'exil dans le roman « îmti sabahan ayatuha-lharb- « Bonjour, guerre » de Maha Hassan

عبد الرحمن وغليسي
الجزائر 2 Alger

المقدمة

عرفت الرواية العربية المعاصرة تحوّلات جذرية في طروحاتها ورؤاها، وتوزّعتْ تيماتها بين جميع الميادين والتوجّهات الفكرية والسياسية والاجتماعية والتاريخية التي أفرزتها التطورات التي عرفتها الساحة العربية مؤخرا، ولعل أبرزها ما يسمّى بالثورات العربية أو الربيع العربي. وقد طفتْ إلى السطح في ظل الظروف الجديدة إشكالياتٌ وقضّايا شكّلت وأعادت تشكيل المسألة الإبداعية برمّتها في العقل العربي المتأرجح بين الانخراط في النضال، أو الاكتفاء بالملاحظة والتقييم، ثمّ الحكم على المرحلة، أو تبنّي رؤية استشرافية لتخطّي الاحباط وصدمة الواقع.

وبحكم الطابع الهجين والمنفتح للجنس الروائي القادرعلى استيعاب المخاضات العسيرة لبعض القضايا السجالية على شاكلة مفهوم الهوية والتعددية الثقافية وأدب الهامش والآخرية وتصارع الرؤى الإيديولوجية واليوتوبية وتجارب المنافي والشتات والاقتلاع وعدم الانتماء، اشتغلت الكاتبة السورية «مها حسن» في روايتها «عمت صباحا أيتها الحرب» الصادرة عن منشورات المتوسط 2017 على تمثّلات الآخر الداخلي والخارجي للقضية السورية في أبعادها الدولية، وطرحتْ تجربة المنفى والمنفى المزدوج ومسارات الشتات وضبابية الهوية المتشظية بين نظرة الآخرين المشفقة واحتقارهم للمهاجرفي آن واحد.

ارتأيتُ أن تدور إشكالية هذه الورقة حول المأزق الهويّاتي وتجربة الاقتلاع والمنفى، والشهادة التاريخية كمرجعية أساسية للرواية العربية المعاصرة، التي تعبّرعن طموحات وآمال الطبقات المسحوقة وجدوى المثقف في عصرالنهايات.

االإرسال2022- 05-14النشرالإلكتروني 2022-05-14 تاريخ النشر2022-10-15
https://aleph.edinum.org/7002

1. مأزق تشظّي الهوية

لعل أبرز ملمح في الرواية العربية المعاصرة يكمن في الاحساس بمدى التأزّم الحاد لإشكالية الهوية (Identité)، التي أصبحت الهم المؤرّق في معظم الأعمال الإبداعية العربية المستقاة من ظروف المحيط الذي نحيا فيه. ولا يخفى على أحد أن الشعور المسيطر على الفرد العربي في السنوات الأخيرة هو الشعور بالتمزّق، وعدم الانتماء وضعف الشعور بالوطنية أو الخواء التام من أي عاطفة أو شعور سياسي.

وتحوّل الالتزام بالقضايا الكبرى شيئا فشيئا إلى ما تخلّفه الحروب الدونكيشوتية من نتائج سلبية واحباطات نفسية وهزائم جماعية في تحرير العقول من طواحين الهواء الافتراضية، المتشكّلة من وطأة الأنظمة الشمولية وغياب الديمقراطية، ودَوْس كرامة الأفراد وتطلّعاتهم نحو الحرية والعيش الكريم، والمشاركة في بناء المستقبل تحت سقف وطنٍ يرأب صدع الصراعات الإيديولوجية والإثنية والسياسية والدينية، ويذيبها في بوتقة من الاختلافات الضامنة للتغاير والتمايز والتضايف، مع مراعاة عدم الاقصاء والتمييز، وعدم تغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة.

وهذا ما ضمنته بعض الدول العربية على الأقل لشعوبها قبل أن يمزّقها التناحر الفئوي، وتطيح بها المصالح الضيّقة، وبهذا رُهنتْ تطلعات الشعوب نحو الحرية والديمقراطية بعد الثورات الشعبية التي عرفتها الساحة العربية في تونس ومصر وسوريا، وبعض الدول الأخرى التي مسّتها عدوى ما أُطلق عليه اصطلاح «الربيع العربي»، قبل أن ينحرف عن مساره، ويحوّل المنطقة العربية إلى ساحة عالمية لتصفية الصراعات الأيديولوجية والسياسية والاقتصادية والسياسية، ويلعب بالورقة الطائفية منذ الغزو الأمريكي المدمّر للعراق سنة 2003، وقتل الأمل في قلوب العرب والمسلمين في مواجهة الإمبراطورية الأمريكية والتغوّل الإمبريالي الغربي في أشكاله العولمية الجديدة.

لا نزعم في هذه الورقة أن إشكالية تشظّي الهوية وليدة الواقع الراهن، وما أفرزه الربيع العربي. فهذا الشعور في الضمير الجمعي العربي يرجع إلى انتكاسات سابقة أقوى وقعا، وأكثر تأثيرا؛ تبدأ ربما ببداية الصراع العربي الإسرائيلي، وضياع فلسطين من أيدي العرب في «نكبة» 1948، وتعمّق هذا الشعور مع انتكاسة 1967، أما الضربة القاصمة التي نكأتْ جروح الماضي المتقيّحة فقد كانت الاعتداء الصارخ للولايات المتحدة الأمريكية على العراق سنة 2003، وما سبقه من حصار اقتصادي مريع، وما تلاه من شروط واتفاقيات اقتصادية وأمنية جائرة على جميع الدول العربية بحجّة محاربة الإرهاب الدولي، ونشر «الرسالة الحضارية» (Mission Civilisatrice) الملقاة على عاتق الرجل الأبيض، الذي مازال يؤمن بأدبياته الاستعمارية في مرحلة ما بعد الاستعمار.

ومن الغريب في الأمر أن نجد مثقفين ورجال سياسة عرب يتسابقون على تأدية وظيفة المخبر المحلي، الذي يسهّل الخطّة الإمبريالية الجديدة. وقد مثّل المثقف العراقي «كنعان مكيّة» دور البطل الطَرْوادِي الحديث (قياسا على قصة حصان طروادة) بتحضيره وتبريره لعملية الاحتلال أحسن تمثيل.

تشتغل الروائية السورية « مها حسن » التي تعيش في فرنسا على موضوعات في غاية الأهمية في عملها الروائي الموسوم «عمت صباحاً أيتها الحرب» (2017)، فالرواية منذ البداية تشير إلى الحرب السورية من عنوانها الصريح، ولكن الكاتبة توزّع مصائر شخصوها وأحداثها على عدة جبهات سواء في سوريا أو خارج سوريا، متتبّعة الخيط السردي الجامع لأفراد عائلة سورية من أكراد حلب، يُفترض أنها تلتقي أو تتقاطع، ولو تخييليّاً مع مصير أفراد عائلتها الحقيقية في معاناتها من ويلات الحرب، وتشتّتها في دول مجاورة ودول أوروبية أثناء ما يعرف بالتغريبة السورية، أو أزمة اللاجئين التي فضحتْ ادّعاءات أوروبا الإنسانية وغنائياتها بتحرير الشعوب العربية من الطغيان، وتعليمهم قيم الحضارة والمدنية والكرامة الإنسانية.

فالرواية التي تتحدث صراحةً عن الحرب وتبعاتها ومآلاتها وآثارها على الشعب السوري، تحتفي بشكل خاص بموضوع الهوية أو إشكالية الانتماء، كما تحتفي بالمنفى والشعور بالاقتلاع وعدم تقبّل الآخر وعدم تسامحه مع اللاجئين في أوروبا على وجه الخصوص.

من أكثر المقاطع إيحاءً وتعبيراً عن أزمة الشعوب العربية بجميع أطيافها ومختلف إثنياتها، التي ما فتئت تعرف الخيبة والاغتراب والشعور بعدم الانتماء، وأكثرها شعورا بتمزّق الهوية وانشطارها بين أماكن عديدة ما كتبته أستاذة الدراسات الثقافية في جامعة نيويورك «إيله شوحاط» (Ella Shohat) تعرّف فيها عن هوّيتها الهجينة المُرتحِلة، حيث تقول:

> «أنا يهودية- عربية، أو لمزيد من الدقة إسرائيلية عراقية تعيش وتكتب وتعلّم في الولايات المتّحدة. أغلب أبناء عائلتي وُلدوا ونشأوا في بغداد، وهم موزّعون الآن في أرجاء العالم، يجرُّون معهم إلى شتاتهم عراقيةً (بمعنى كون المرء عراقياً)، تتأقلم مع بيئات أخرى ومع خليط من اللغات الأخرى». (شوحاط: 2015 : 08.)

وما لا تفهمه « شوحاط » هو الاندهاش المعرفي للأمريكيين، أو ما تصفه بالغرابة الساحرة من كون المرء عربيا ويهودياً في آن واحد. أما هي فقد حاولتْ أن تفهم العالم في تنوّعه وثرائه وتناقضه المقلق؛ فكون المرء يهوديا وعراقيا في حالتها يعبّر عن حقيقة مفادها أن الهوية ليست معطى قبلياً، أو خصيصة تنفرد بها مجموعة أو طبقة عن أخرى، بقدر

ما هي تركيبٌ يترجم تفاعل الإنسان مع محيطه، وصراع التاريخ مع الذاكرة الجمعية للشعوب.

يمكن الإشارة هنا تحديدا إلى التعريف الطريف والعميق الذي طرحه الشاعر الكبير محمود درويش في مسألة الهوية المركّبة من تناقضات الفرد ومجتمعه. ففي مرثيته الخالدة لصديقه المقرّب إدوارد سعيد، يجيب على سؤال افتراضيٍّ من صاحبه الإشكالي في حياته وبعد موته:

« والهوية؟ قلتُ
فقال : دفاعٌ عن الذات..
إن الهوية بنت الولادة لكنها
في النهاية إبداع صاحبها، لا
وراثة ماضٍ. أنا المتعدّد.. في
داخلي خارجي المتجدّد». (بتلر: 2017 : (338-339).

إن المشكلة الأساسية التي تعبّر عنها « شوحاط » هي ما يُعرف بمسألة اليهود الشرقيين، أو أولئك اليهود الذين طُردوا من أوطانهم، واقتُلعوا عنوة من مجتمعاتهم، وأُجبروا على الرحيل من مساكنهم تحت ذرائع شتّى إلى إسرائيل، لتأسيس حياة جديدة بدأتْ بالشتات والتشرّد في مخيمات المهجّرين، وانتهتْ بعدم انسجامهم مع اليهود « الإشكناز» الذين يمثّلون عنصرية الثقافة الاستعمارية الأوروبية المهاجرة عقب المحرقة اليهودية، وبذلك تعرّضوا للإقصاء والتمييز والتهميش، وعُوملوا باحتقار شديد ودونية من إخوانهم في الدين، لا نجدها إلا في الخطاب الاستشراقي المتماهي مع الخطاب الصهيوني.

لكن في حالة السوريين تأخذ مسألة الهوية منحىً آخر ينبني على استعارة البيت المفقود، فالبيت له حيّزٌ كبير في الرواية من بداية السرد إلى نهايته، ولعلّ العناوين الكثيرة للفصول على شاكلة « لو كان عندي بيت »، « لا بيت في حلب »، « لا بيت في السويد »، « هاجس البيت »، و« عقدة البيت » تعطينا فكرة واضحة عن اغتراب شخوص الرواية خارج البيت/ الوطن.

وهنا تمنح «مها حسن» شرف قيادة هذه الجوقة العائلية للأم الحكّاءة أمينة في دور «شهرزاد حلب»، فرغم موت الأم المأساوي وحيدةً وبعيدةً عن أولادها المشتّتين في كل مكان، ومن دون الظفر ولو بنظرة وداعية أخيرة، إلّا أنها تُبْعَثُ من جديد في مهمة سردية ككائن خرافيٍّ مكلّف برواية الأحداث اليومية، ونقل ما يحدث معها ومع محيطها بشكل يومي إلى مسامع ابنتها «مها» التي تعيش في فرنسا.

هنا تقلب «مها حسن» بطريقة حسّاسة تقنية الكاتب الكولومبي الكبير غارسيا ماركيز في سيرته الذاتية «عِشْتُ لأروي» إلى استراتيجية استرجاعية تمكّن الأم من استعادة الحياة، والمحافظة على سيرورة الحكي، خالقةً بذلك ما نطلق عليه «المنطق الشهْرَزَادي»، وهو ما عبّرت عنه الكاتبة بـ: رويتُ لأَعيشَ.

تقول الكاتبة واصفة أمّها المرتبطة وجدانياً معها بشكل رهيب:

> «أمّي امرأةٌ خاصة، بطلةٌ خرجتْ من روايات أمريكا اللاتينية، وعاشتْ في قرى عفْرين، وتدحرجتْ مع بنات الحكايات التي غذَّتْ رأسيَ الصغير بها في طفولتي، ثمَّ طارتْ روحها في حلب، ممسكةً بأرواح صاحباتها الحلَبيّات، اللواتي أصرّتْ أن تموتَ بينهنَّ، فتلحق بهنّ، ويلحقنَ بها، للاضطّجاع في حديقة (حلب الجديدة)، ساخراتٍ من الحرب، وهنّ يحوّلنَ مقاعد الحديقة إلى شاهدات قبور، من أين أبدأ الحكاية مام؟». (حسن: 2017: 18)

لم يمنع كون عائلة «مها» من أكراد مدينة حلب من العيش بسلام وتضامن ومحبة مع باقي سكّان الحارة من المسلمين والمسيحيين العرب، وحارة العمران هنا هي البؤرة التي تنطلق منها الأحداث وتعود إليها. إن قدسية العائلة وعلاقات حُسْن الجوار لعبتْ دورا مهما في تعايش جميع الإثنيات بعيدا عن الصراعات الطائفية البغيضة. والعائلة تشعر بالأمان والانتماء ما دامتْ بين سكان الحارة الذين جاءوا من قرى وأحياء بعيدة ومختلفة دينيا وعقائديا وثقافيا وسياسيا، وهذا ما كان يعطي للوالد مبرّر البقاء في الحارة، أما الرحيل عنها فمغامرةٌ لا تُحمد عقباها.

> « فهمتُ آنذاك رفْضَ أبي لطلبي المتكرّر لمغادرة الحارة : نحن أغرابٌ هنا، نحن أكراد، وثقافتنا مختلفة، انظر بنات أصدقائك الشيوعيين، نحن نعيش كالمسلمين المتديّنين، هؤلاء الريفيون لا يشبهوننا، نحن من الريف الكردي، وعاداتنا مختلفة... قال أبي يوم ذاك : حين أخرج من الحارة، لا أشعر بالقلق عليكنّ، زوجتي وبناتي، فأنا أعرف أن هناك جيراناً يُضحّون بأنفسهم لحمايتكم ». (حسن: 2017: 98-99)

وقد رسمتْ معالمُ الحارة الأمان للأم التي بقيتْ وحدها مع ابنها حسام، ثم مع الجارات بعد أن قرّر حسام في الأخير الرحيل، والنجاة بجلده من الوقوع بين مخالب أصدقاء الأمس والمقاتلين على الأرض، بعد أن أصبحت حلب وسوريا ككل قِبلةً لجميع التكفيريين والجهاديين والحالمين بالجنة ونكاح الحوريات وحياة الحريم من جميع بقاع العالم.

تُزاوج «مها حسن» بين الاحتفاء بهويتها الكردية وتمايزها عن باقي سكّان الحارة، وبين انصهار والدها في هوية جمعية تذوب في قيم الحارة القائمة على الشهامة والتعاضد، واستبعاد الرابط القومي أو الدموي، أما حسام فقد عرف هزّةً قويةً في هويّته المؤمنة بإمكانية التشارك والتعايش، وجعله تعرّضه للاعتقال والإذلال من طرف زعيم إحدى الميليشيات يكفر بهويّته، ويرتدّ بشكل جذري عن قناعاته وأفكاره، ويقرّر في الأخير أنه بحاجة ماسّة لإعادة تعريف انتمائه، ومراجعة هويّته العالقة، وهو ما دفعه لطلب اللجوء في السويد.

2. احتقار الأجانب والمنفى المزدوج

يمكن القول إن التجربة المريرة التي عرفها حسام جعلته يعرف معنى المنفى النفسي في بلده وبين أهله وأصدقائه ككثير من أقرانه السوريين، لكن ما وقع معه في السويد، ومعايشته لبرودة المجتمع السويدي، واحتقارهم للأجانب جعله يدرك مدى نفاق المجتمع الأوروبي/ السويدي وكرههم للأجانب وخاصة اللاجئين منهم. إن تأزّم الهوية عند اللاجئين وتخبّطهم بين القبول والرفض، جعلتْهم يشعرون شعورا حادّاً بوطأة المنفى، أو بالمنفى المزدوج إن صحّ القول.

يذهب إدوارد سعيد إلى أن العصر الذي نحيا فيه هو عصر اللجوء والطرد والهجرة الجماعية بامتياز، وبمجرد قراءة الاحصائيات أو مشاهدة وسائل الإعلام يتضّح لنا صدق هذه المعلومة، وإذا كانت الولايات المتّحدة قِبلةَ المهاجرين، والهاربين من آلة الموت النازية، وفاشية أوروبا في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، فإن قبلة الهجرة الآن هي دول أوروبا نفسها، وخاصة الدول الاستعمارية بالأمس والدول الإسكندنافية، وفي مقدّمتها السويد.

يرى اللاجئ السوري السويد أنها الجنّة الموعودة، فبمجرد أن تطأ أقدام المهاجر أو اللاجئ أرض السويد تختفي جميع عذاباته، وتُفرش الأرض تحت رجليه بالورود. هذا ما كان يحلم به حسام الطوباوي، الذي فرَّ خوفا على حياته، ومن غدر أصدقائه السابقين، لكنه بمجرد وصوله إلى السويد، واستقباله من طرف دائرة الهجرة، ووضعه في «الكامب» المعزول عن المدن والتجمّعات السكانية، أدرك أنه وقع في أسر المنفى، ومع مرور الوقت وتعقّد إجراءات الحصول على الإقامة، والحق في العمل وتعلّم اللغة والتواصل مع السويديين، تضاعف شعوره بالمنفى، فهناك منفى الوطن/العزلة، وهناك منفى اللغة.

> « في انتظار الحياة السويدية، في انتظار العيش داخل السويد، واللقاء بالسويديين، أولئك الكائنات البيضاء الجميلة، سيبقى اللاجئ محكوما

> بالاعتقال داخل حياة ضيّقة، لا أحلام ولا إذن بالعيش خارج مجتمع صغير، مجتمعٌ له قوانينه التي لا تشبه قوانين السويديين ». (حسن: 2017 : 215)

إذن «لا جنة في السويد»، هذا ما تؤكده الروائية بقصة حسام، فمشاعر الاقتلاع والتشرّد ونظرة الآخر التحقيرية، وانغلاق المجتمع السويدي على نفسه، والخوف من المهاجرين، وأخيرا الطرد النهائي لحسام من السويد يعدّ تجربة مَنْفوية مريرة، قد تؤول إلى تماهي تجربه حسام مع تجربة الكاتبة نفسها رغم الاختلاف الجذري في مصائرهما.

إذا كان المنفى لا يرحّب بحسام ولا يتقبّله، فإن المنفى النفسي للكاتبة يؤرقها كمثقفة تعيش منفاها الفرنسي منذ زمن، ولكنها تصحو كل يوم لتحلم بالعودة إلى مدينتها وحارتها وبيتها. فالبيت هنا بطل أبطالها، وأكبر كوابيسها، ومنتهى أحلامها، والبيت استعارةٌ كبرى عن الوطن الضائع. «البيت بالنسبة لي، وطنٌ دائم للكتابة والتخيّل، واكتشاف الذات والعالم، وإيجاد الحلول لأزماتي الحياتية والكتابيّة». (حسن: 2017: 395) أما سعادة أختها المهاجرة حديثا مع عائلتها ببيتها الجديد في السويد هي فرضيّةٌ لعالم آخر وحياة أخرى، قد تكون ممكنة ولكنها ليستْ متاحةٌ للجميع.

خاتمة

تُعتبر «عمت صباحا.. » للسورية «مها حسن» سرديةً شاعرية عن المنفى واللجوء، كما تتمثَّل صيرورة الهويات المتصارعة لعصر المنافي والهجرات الكبرى والخوف من الآخر، وتفضح الخطابات الديماغوجية ونفاق المجتمعات الغربية وسياساتها الرجعية. وفي الأخير هي مرثيةٌ للوطن الضائع، ومقاومةٌ للخيبة، وحلمٌ باستعادة «البيت»، ومن لا بيت له، لا وطن له ولا تاريخ له، والحياة نفسها بيوتٌ وذاكرةٌ لا تموت.

قائمة المراجع

مها حسن؛ عمت صباحا أيتها الحرب، منشورات المتوسط، ميلانو، ط01، 2017.

إيله شوحاط؛ ذكريات ممنوعة، تر: إسماعيل دبج، داركنعان، دمشق، ط01، 2015.

جوديث بتلر؛ مفترق الطرق: اليهودية ونقد الصهيونية، ترجمة: نور حريري، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط01، 2017.

مستخلص

نتناول في هذا المقال إشكالية حسّاسة في الرواية العربية المعاصرة اشتغلت عليها الكاتبة السورية المغتربة في فرنسا «مها حسن»، حيث أنها قاربت ما حدث من تغيرات على مستوى البنى السياسية والاقتصادية والثقافية في البلدان العربية وعلى رأسهم سوريا بشكل سردي حاول استيعاب مسائل متنافرة من قبيل الهوية والاغتراب والمنفى المزدوج والشعور بالاقتلاع، وكذا

تطلعات الشعوب العربية لمتطلبات الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان واللجوء الإنساني. من هنا أثمرت هذه الرؤية عملا منفتحا على الآخر، متورطا في سجالات ثقافية تروم احتواء الآخر الداخلي والخارجي وتمثيله، وكسب اعترافه واحترامه، دون التورّط في شيطنته.

كلمات مفتاحيّة

الهوية، الآخر، المنفى المزدوج، التمثيل.

Résumé

Dans cet article, nous abordons une problématique sensible du roman arabe contemporain sur laquelle a travaillé l'écrivaine syrienne expatriée en France « Maha Hassan », en examinant les changements survenus au niveau des structures politiques, économiques et culturelles dans les pays arabes, en particulier dans son pays d'origine la Syrie, d'une manière narrative qui a tenté d'assimiler des questions hétérogènes telles que l'aliénation identitaire, le double exil et le sentiment de déracinement, ainsi que les aspirations des peuples arabes aux avantages de la démocratie, de la liberté, des droits de l'homme et de l'asile humain. D'où cette vision a abouti à une œuvre ouverte sur l'autre, engagée dans des débats culturels visant à contenir l'autre intrinsèque et extrinsèque, ainsi qu'à le représenter et à gagner reconnaissance et respect, sans pour autant s'impliquer dans sa diabolisation.

Mots-clés

Identité, Altérité/L'Autre, Double Exil, Représentation.

Abstract

In this article, we discuss a delicate issue in the contemporary Arab novel addressed by the Syrian writer expatriate in France « *Maha Hassan*, » as she approached the changes that occurred at the level of the Arab countries' political, economic, and cultural structures, particularly in Syria, in a narrative form that attempted to assimilate incompatible questions such as identity, alienation, double exile, and feeling uprooted, as well as the Arab peoples' aspirations for the requirements of democracy, freedom, human rights and humanitarian asylum. Hence, this vision resulted in a work that was open to the other, participating in cultural debates aimed at containing and expressing the internal and exterior *Other*, as well as obtaining his acknowledgment and respect, without condemning this Other.

Keywords

identity, other, double exile, representation.